في دنيا البطولات :

ثلاثة جاهدوا فصدقوا ...

للأستاذ محمد سليم الرشدان

ـ مقامي على الهوان وعندي مقول صارم وأنف حمي ؟!
وإباء محلق بي عن الضيـ ـم كما زاغ طائر وحشي ؟!
« الإمام الشريف الرضي »

لعلك — أيها القارئ — تخالني حين تقرأ هذا العنوان ، سأحدثك عن ثلاثة من أعلام الجهاد ، ممن تردد ذكرهم على ألسنة الناس ؟ لا يا أخي ! ما أنا وذاك ؟ إن لهؤلاء في مواطنهم من بقي بطولتهم خفاء وإن حديثي عنهم — لو فصلت — لا يجاوز أن يكون إلمامة عابر ، لمح في الأفق البعيد جبلا ، فهو يصف منه تهاويل ما خيل إليه ، دون أن يصل بيقينه إلى كنه مسالكه وشعابه !

إذن فـ إلى ولأولئك ! ودعني أحدثك عن ثلاثة عرفتهم بنفسي ، وصحبتهم عمراً من دهري . وقد جاهدوا فصدقوا في جهادهم ، حتى ارتقوا إلى مراتب البطولة ، إلا أنها صامتة متواضعة ، لم يتبعها زيف من الجلبة ، ولم يتقدمها بهرج من الرياء .

إن هؤلاء الثلاثة من القرويين ، وإن شئت فقل من (الفلاحين) ، على رأي مواطنيهم (من أبناء الذوات) ! وهم من ثلاث قرى مختلفة ، إحداها نكرة في القرى ، لا يصلها طريق ذلول ، إلا أن يكون انحداراً من شماف الجبال ، أو صعوداً من بطون الوديان . فإذا ما التمست إليها سبيلا ، كنت كمن يرقى في السماء ، أو ينحدر في هاوية ليس لها قرار !

ولا يذهب بك الظن بعيداً ، فتخالهم من سواد الدهماء ! وإنك لتعلم أن الظلمة لا تمتزج مع النور ، وأن الجهل شر ضروب العمى ، وأن من عمي قلبه لا تستقيم له المسالك ، فهو يخبط خبط عشواء لا ينتهي بصاحبه إلى غاية . فلو لم يهذبهم العلم لما أدركوا معنى الجهاد ، ولو لم تصقلهم المعرفة لما استيقنت قلوبهم :

« إن حب الوطن من الإيمان .. »

فهم من أبناء الجامعات ، حملوا منها رسالة العلم ، ثم تقلبوا في الآفاق يؤدون هـذه الرسالة ، وأخيراً هتف بهم الوطن فلبوا نداءه ، ثم عز عليهم أن يهجروه في محنته حين هجره الكثيرون من أبنائه . وكانت العاقبة أن سقط أحدهم شهيداً ولسان حاله يردد قوله :

وأهوى يعفّر وجهي ثراك ... ثرى وذلك جهد المقل !

وبقي الآخران مرابطين صابرين ، أحدهما يجاهد بقلمه ، بعد أن ألقى من حوله السلاح ؛ والثاني مازال في خطوط القتال ، يبذل حشاشته ، ويراوغ منيته . يدفعه أمل باسم يحمله على أن يردد في نجواه : « من طلب الموت وهبت له الحياة » .

أتذكر فيما مر بك أن شاعراً قتله بيت من شعره ؟ إنه المتنبي حين هتف به غلامه : « أتفر وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؟ »

فرد عنان جواده وقال : « بل ؛ أنا القائل » ، ثم قاتل حتى قتل .. وإن هذا البطل الذي أسوق إليك نبأه قتلته (كذلك) أبيات من شعره ! أو تدري كيف ؟ كانت جحافل (جيش الإنقاذ) تستعد للانسحاب من مدينة (الناصرة) ، ماخلا كتائب تنتشر هنا وهناك ، يقابلها العدو وجهاً لوجه . وكان ذلك الفتى يقود كتيبة منها ، وصمد هو ورفاقه في وجه العدو المنتصر ، حتى ضاقت عليهم السبل ، وكادوا يطوقون .

فالتفت إلى أصحابه يصدر أمره بالانسحاب ، فإذا بأحد المجاهدين يصيح في وجهه — وقد ألهبته سورة الجهاد — : وا ذلاه ! أتفر وأنت القائل : سأحمل روحي على راحتي .. ؟ »

فأجاب — وقد أشرق في وجهه نور الشهادة — : « نعم والله ! أنا الذي أقول ذلك » ووثب من مكمنه يخترق حجاباً كثيفاً من الرصاص ، وهو يردد بصوت يسمعه من خلفه :

سأحمل روحي على راحتي ... وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق ... وإما ممات يغيظ العدا
ونفس الشريف لها غايتا ... ن ورود المنايا ونيل المنى
أرى مقتلي دون حقي السليب ... ودون بلادي هو المبتغى
لعمرك هـذا ممات الرجال ... ومن رام موتاً كريماً : فذا !!

وسقط المجاهد البطل يلفظ أنفاسه وهو يردد عجز البيت الأخير : « ومن رام موتاً كريماً : فذا !! » وكان آخر ما تلفظ به قوله : « الحمد لله على الشهادة .. » . ولم يكن ذلك أول جهاد قام به ، فلقد كان له قبل ذلك جهاد طويل ، ولكنه في ميدان

آخر . فقد تولى التدريس زمناً في كلية النجاح الوطنية بنابلس ، كما تولاه زمناً في العراق . فلقن طلابه دروساً في (الوطنية) ، أضعاف دروسه في اللغة والأدب . وكان له في الصحافة المحلية ميداناً لايفتأ يتحرفيه من آيات إبداعه شتى الألوان . وقد طوف في الأقطار العربية المجاورة ، وتعرف إلى جماعة الأدباء فيها ، فأصبح بينهم علماً يعرفه القريب والبعيد . ومَنْ من أدباء فلسطين ومتأدبيها لا يذكر القصيدة العصماء التي استقبل بها الأمير السعودي يوم زار بيت المقدس . وكان أحد أبياتها قوله :

(المسجد الأقصى) أجئت تزوره ؟ أم جئته قبل الضياع تودعه ؟

لقد كانت تلك القصيدة — يومذاك — حديث المجالس ، وطرفة الأدباء . وكأنما تكشف له فيها حجاب الغيب ، فنظر من خلفه ما صارت إليه الأمور !

وإن لهذا الشاعر من ضروب القول ما يضيق عن سرده المجال (لو وصلت إليه يدي !) ، وحسبك أنه يقع في دواوين ! ولا أدري ماذا فعل الله بآثاره ، وإني لأعلم أنها كانت لا تزال مخطوطة كلها .. ويحضرني من غزله أبيات — له ما يفضلها — من قصيدة عنوانها (يا نادرة !) قال فيها :

روحي فقد راح الذي بيننا
كالبارح السالف ما أن يعودا!

روحي ولا تأسي على حالتي وانسي مواثيقي وخوني العهود
لا تحملي من ذكر عهد الهوى إن الهوى صعب وحمل يؤود!

روحي فقد راح الذي بيننا ..

إذا تلاقينا فلا تنظري أري وميض الغدر في ناظريك
ولا تشيري لي ولا تومئي وددت لو تقطع كلتا يديك !

روحي فقد راح الذي بيننا
فلعنة الحب وقلبي عليك ..

هذا عبد أحد الثلاثة المجاهدين ، بذل من أجل وطنه غاية ما يملك (وهو دمه !) وخلف من ورائه في قرية (عنبتا) أطفالا ليس لهم عائل ، وإنما لم يترك لهم تراثاً ، إلا أن تكون هذه البطولة الفذة ، تنشيء عليها صغاره ! ! ، فرحم الله الشهيد البطل (عبد الرحيم محمود) ...

يا أخي القارئ ؛ لست أزعم لك أن ما قام به هؤلاء الثلاثة بطولة نادرة ، وأعمال خارقة يعجز عنها الآخرون من بني الإنسان ! ولكنها مواقف كريمة ، تتمثل فيها الرجولة الصادقة ، ويطمئن إليها الخلق النبيل . وإنك لتسمع في (مجالس) ، وتقرأ في صفحات (كتب) ، الكثير من (النجدة والحفاظ ؛ فزيد بأنف الضيم والعار ، وعمرو يأبى الذل والصغار) ! ولكنك حين تلتمس هذا الـ (زيد) ، أو تطلب ذاك الـ (عمرو) ، تجدهما — إلا أن تواتيك المصادفة العجيبة ! — قد تخلفا في زوايا تلك (المجالس) أصداء تتردد ، وفي صفحات تلك (الكتب) مداداً تحتضنه سطور !!

أرأيت إذن أن الأعمال تقاس بما يحوطها من ظروف ، وأن الشاعر كان صادقاً كل الصدق حين قال : (وبضدها تتميز الأشياء) ! إنك — من غير شك — قرأت قول الطغرائي :

حب السلامة يثني هم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل

ولكنني لا إخالك لقيت من عبث الأقدار ما يقفك ذلك الموقف الذي يجعلك تحس (بنفسك) ما يريده الشاعر من (حب السلامة) ، كأنْ يخيرك بين أمرين : إما الحياة ، وإما الموت ! وإنه لاختيار عسير ، ندر أن تجد في الناس من يتردد طويلا في الانحياز إلى أحد شقيه ! ولعلك لا تعجب أن يختار (بنو الموت) شقه الأول ، فهذا هو الذي يحتمله — على علاته — منطقنا الصحيح أو السقيم لست أدري !) وهل عسيتك — إن أنت وقفت حيال رجل فر من الموت — أن تستهجن ما صنع ؟ !

وعلى ذلك القياس تجد أن حب السلامة يتساوى فيه الناس جميعاً ، ومن هنا يمتاز من يزهدون فيه ، ويقدمون على الموت بمل اختيارهم ، في سبيل غاية سامية ، أو ثباتاً على مبدأ يعز عليهم أن يجاوزوا حدوده .. وكذلك كان أصحابي الثلاثة ، فقد أقدم أحدهم على الموت كما رأيت ، لأنه أحب أن يقول فيفعل ، وقال غيره (وهم كثيرون !) أبلغ من قوله ، ولكنهم آثروا العافية ، وهتف بهم (حب السلامة) فلجأوا إليه راغبين مسرعين ، كأنما أرهف مسمعهم نداءه شاعرهم البدعة ، فسمعوه قبل أن يسمعه أحد سواهم . وسرعان ما انتثروا بين القاهرة وبغداد (ومنهم من جاز البحر إلى قبرص) ، وجعلوا من هناك يحرضون الناس على القتال ! ولكن ذلك الأديب المجاهد ، ثبت لا يبرح مكانه متجاهلا (سلامته) ، فبذل حياته ثمن ذلك التجاهل ، وإنه لثمن لا يملك صاحبه أعز منه .

وقد فعل رفيقاه مثل ما فعل ، إلا أنه لكل أجل كتاب ! فهذا أحدهما تصبح قريته (قلقيلية) في صميم خطوط القتال ،